الباب الثالث

علاقة الضحك بالعلوم

ويتضمن الموضوعات التالية :

- علاقته بعلم النفس
- علاقته بالفلسفة
- علاقته بعلم الاجتماع

علاقة الضحك بعلم النفس

للضحك علاقة وطيدة بعلم النفس فالضحك هو الآلية التى تروح عن النفس وتخرجها من همومها ولندع الحديث للمختصين ونرلاى سوياً ماذا يقول علماء النفس !؟

من وجهة النظر النفسية يفسر سيجموند فرويد الضحك على أنه ؟ مثل اللهو ؟ يقوم علي مبدأ اللذة حيث أن الإنسان بصفة عامة يجنح إلى المواقف التي تؤدي إلى الحصول علي اللذة ويتجنب الألم، ومن خلال هذه الرؤية فالضحك يتضمن إنكاراً للواقع وتحرراً منه، وهو في ذلك يشبه الأحلام وبعض الحالات النفسية من حيث حدوثه علي مستوى اللاشعور أو العقل الباطن، لكن هناك فارق واضح بين الضحك وبين تلك الحالات، فالضحك وسيلة صحية للتهرب وقتياً من هموم الحياة المعتادة، ومن ثم فإنه استجابة سوية وصحية للتخلص من ضغوط الواقع الخارجي لكنه يظل تحت ضبط وسيطرة الإرادة وقد ربط بعض علماء النفس بين الضحك والعدوان لكثرة ما يلاحظ من أن الناس يضحكون أحياناً للمصائب والمواقف التي يتورط فيها الآخرون، ومثال ذلك ما يحدث في كثير من المشاهد التمثيلية منها الرسوم المتحركة للأطفال والسلسة المشهورة التي تحمل اسم توم وجيري وهما قط وفأر يمثل الأول القوة المتسلطة بينما يمثل الأخير الذكاء وحسن التصرف، ولا شك

لحظة واحدة في أن كل الأطفال يتعاطفون منذ اللحظة الأولي مع الفأر ويضحكون لكل مقلب ينجح في تدبيره ويتورط فيه القط ولعلنا نلاحظ أيضاً أن الناس عادة ما يضحكون إذا تعرض شخص من علية القوم لموقف أو مأزق، لذلك بدافع العداء نحوه، ومثال ذلك حين يتعرض رجل أنيق يختال في بدله جديدة فاخرة للتزحلق فوق قشرة موز كما يختلف الناس أيضا في استجابتهم فمنهم من ينهض ضاحكاً بعد أن يسقط علي الأرض، ومنهم من يستجيب لنفس الموقف بالسخط والغضب البالغ.

ويرى البعض في الضحك نعمة هامة يتميز بها البشر حيث ينظر إليه على أنه دواء هام لدفع التشاؤم واليأس، والترويح عن النفس، ووسيلة لدفع الملل الناتج عن حياة الجد والصرامة، وتنفيس عن آلام الواقع ويعد الضحك أحد مناهج الحياة التي يمكن أن نزعم أن الإنسان ينفرد بها عما سواه من المخلوقات من حيوان ونبات وجماد والطفل الصغير يضحك قبل وقت طويل من قدرته على الكلام والسير ويرى البعض أيضاً أن الضحك ظاهرة تجمع بين اللهو والحركة واللعب، حتى لينظر إليه على أنه تمرين رياضي.

وقد يكون وسيلة لإطلاق طاقة نختزنها في داخلنا وندخرها لمواجهة المواقف الجادة في الحياة، ونحن نطلق هذه الطاقة في صورة ضحك حين يتبين لنا أن الحياة ليست بهذا الجد والخطورة ولا يلزم لها كل هذا

التحفز والانفعال فنضحك لأننا أخذنا المسائل بكل هذه الصرامة التي لا لزوم لها وإذا كان الطب النفسي يقسم الوظائف العقلية نظرياً إلى الوجدان والإدراك والنزوع فإننا حين نضحك نمارس نشاطاً يتعلق بكل هذه الجوانب الثلاثة، أي أن الضحك عملية عقلية، ولتوضيح ذلك نفترض أن المرء قد تعرض لموقف فيه دعابة فإنه يحس بالسرور ينبعث في نفسه حين يفهم ما يعنيه الموقف ويدركه ثم يكون التعبير عن ذلك بالضحك تلقائياً.

وقد يستخدم العلاج بالضحك على نحو منظم مثل قاعات الضحك التي تجهز في بعض العيادات والمستشفيات التي تزود المرضى بوسائل تشجع على الضحك مثل الكتب والمجلات والأشرطة والعروض والأفلام والضحك والمرض والعلاج وقد يكون الضحك حاضراً في بعض الأمراض العقلية والنفسية والعصبية والاضطرابات السلوكية ، وهناك ضحك يصاحب الجنون والعدوان، وقد تحدث نوبات من العدوى بالضحك يصعب السيطرة عليها، فقد اضطرت إدارة إحدى مدارس البنات في أفريقيا إلى إغلاق المدرسة بسبب نوبات الضحك الجماعية الهستيرية التي عمت المدرسة، وقد تؤدي بعض المدارس إلى خلل في حس الفكاهة فيفقد المريض الإحساس بالبهجة في المواقف المضحكة، وقد تكون النكات أعراضا لأمراض معينة، فالمصابون بالهستيريا يحبون ويروون النكات الجنسية، والمصابون بالوسواس القهري يحبون النكات البذيئة

ذات الطبيعة الشرجية، ويفضل المتبلدون والمعادون للمجتمع النكات التي تروي عن التحايل على الآخرين، ويفضل المصابون بأمراض الشعور بالعظمة النكات التي تظهرهم أبرياء، وهناك الضحك المرضي الذي يحدث بطريقة تلقائية بفعل حدث أو مثير غير محدد لا تكون له دلالة انفعالية مناسبة، وقد يؤدي الضحك أحيانا إلى نوبة مفاجئة من الضعف العضلي، وهناك ضعف يستثيره غاز أكسيد النيتروز، وهو مخدر مسكن للألم يستخدمه أطباء الأسنان.

الضحك ودلالاته في علم النفس

يضحك الإنسان بملء فيه عندما يرى مواقف تدعو إلى الضحك، أو يسمع قصة أو نكتة معينة أو أن تكون ظاهرة الضحك عند بعض الناس بدون سبب يدعو لذلك.

يقول زكريا إبراهيم في مقال له تحت عنوان الضحك مجلة العربي الكويتية العدد:٩٧عام ١٩٦٦م يقترن الضحك في نظر كثير من الباحثين في العادة بمجموعة من المؤثرات الفسيولوجية كما أنه يصاحب في كثير من الأحيان ظاهرة السرور والانشراح.

كذلك يقرر عدد من علماء النفس أن للضحك والفكاهة دلالة اجتماعية واضحة،نظراً لأنهما متأثران بالوسط الاجتماعي المباشر والظروف الحضارية العامة ويميل معظم علماء النفس فيما يتعلق بميول الإنفعال

والغريزة التي يتصل بها الضحك إلى حصرها في الخوف،والجنس، والعدوان، والإحساس بالانتصار أو التفوق.

وإذا ما انتقلنا إلى المجال العقلي، وجدنا أن الباحثين يقررون أن الضحك كثيراً ما يتولد عن المفارقات، والجمع بين المواقف المتباينة، والتأليف بين العناصر المتنافرة، ووضع الشيء في غير موضعه.

ويصف الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز الضحك بأنه هزة فجائية تهبط علينا لشعورنا بسمونا ورفعة شأننا، إما بالقياس إلى الآخرين الذين هم في حالة ضعف وضعه.

ويقول إبراهيم أيضاً: ألا يحدث أحياناً حتى في مجتمعاتنا الحديثة نفسها، أن يبكي الإنسان من شدة الفرح؟ وهل يمكننا أن نعتبر الضحك الهستيري مثلاً تعبيراً عن شعور بالبهجة أو السرور. هنا نجد أن الضحك قد ينبعث إما نتيجة لحالة انشراح عامة أو تحت تأثير مؤثر سار من نوع خاص، أو نتيجة لموقف اجتماعي ملائم يبعث على الرضا.

سيكولوجية الضحك عند الجاحظ

الضحك استعداد فطري في الانسان لا يكتسبه بالتجربة وهو انفعال إنساني خاص يتميز به عن بقية الحيوانات، ولذلك عرف الإنسان بأنه حيوان ضاحك، وله ككل الغرائز أركان ثلاثة: مؤثر أو باعث يستثيره، وحالة انفعالية مصاحبة، ووظيفة أو غاية يسعى إلى تحقيقها.

وقد استثارت ظاهرة الضحك من قديم الزمان اهتمام الفلاسفة وعلماء النفس، فعني بدراستها كل من أفلاطون وأرسطو وشيشرون وديكارت واسبينوزا وهوبز ولوك ورنوفييه وبرجسون وفرويد ومكدوجال وهوفدنج وغيرهم ولا شك في أن هؤلاء العلماء والفلاسفة قد تعرضوا لبحث هذه الظاهرة من جميع جوانبها سواء من حيث العوامل المؤثرة في نموها أو من حيث وظائفها.

وإذا سألك سائل: هل للأدباء دور في بحث هذه الظاهرة؟ يأتي الجواب من خلال استقصاء التراث النفسي لدى الجاحظ الأديب والمفكر، فللجاحظ دراسات مستفيضة في الضحك، وفلسفته تتناثر في ثنايا كتبه ورسائله، وهي تتجاوز في قيمتها الفكرية كل ما قدمه الفلاسفة وعلماء النفس في تفسير ظاهرة الضحك .

وقد عرف الجاحظ بالظرف والدعابة وخفة الروح، وولع بالضحك والاضحاك ولعاً شديداً، ويرجع ذلك كما يذكر طه الحاجري إلى طبيعة الجاحظ ومزاجه، فقد كان رجلاً مرح النفس، متهلل الخاطر، منطلق الوجه، نزاعاً إلى الضحك ومن ذلك ما نجده لديه من الدعوة إلى الضحك والمزاح والفكاهة والدفاع عنها .

ولم يكن ولع الجاحظ بالضحك والدعابة لمجرد العبث واللهو، ولكن كانت له في ذلك فلسفة خاصة هي الترويح عن قارئه، ودفع السآمة التي قد يجلبها إلى نفسه الجد المتصل، وقد دافع الجاحظ عن هذا واحتج له

بقوله: وإن كنا قد أمللناك بالجد والاحتجاجات، فإننا سننشطك ببعض البطالات، وبذكر العلل الطريفة والاحتجاجات الغريبة .

ولا شك في أن الجاحظ في هذا الرأي يتفق مع أحد الباحثين العصريين الذي يرى أن الضحك ظاهرة نفسية تصدر عن الطبيعة البشرية المتناقضة التي سرعان ما تمل حياة الجد والصرامة والعبوس، فتلتمس في اللهو ترويحاً عن نفسها، وتبحث في الفكاهة عن منفذ للتنفيس عن آلامها، وتسعى عن طريق النكتة نحو التهرب من الواقع الذي كثيراً ما يثقل كاهلها .

وولع الجاحظ بالحديث عن الضحك أيضاً ليس قائما فقط على نزعته العلمية والفلسفية التي صبغت معظم ما تعرض له في دراساته العديدة من قضايا ومسائل، ولكنه كان إلى جانب ذلك متصلاً بتكوينه النفسي المتسم بالظرف والدعابة وخفة الروح فلقد تجاوز الجاحظ مرارة الإحساس بدمامة خلقته فانطلق من وراء ذلك إلى أفق عريض من السمو العقلي والنفسي في بعض الأحيان لأنه كان يرى أن الضحك شيء في أصل الطباع وفي أساس التركيب، وهو أول خير يظهر من الصبي، وبه تطيب نفسه وعليه ينبت شحمه، ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته.

ويلح الجاحظ في الدفاع عن الضحك مبيناً أثره في حياة الإنسان وأنه جزء من طبيعته فيقول: ولو كان الضحك قبيحاً من الضحك وقبيحا من

المضحك لما قيل للزهرة والحبرة والحلي والقصر المبني: كأنه يضحك ضحكاً وقد قال الله جل ذكره وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا فوضع الضحك بحذاء الحياة، ووضع البكاء بحذاء الموت ثم يمضي في حديث طويل يحتج فيه للضحك، ويدافع عنه ويبين أثره وقيمته، ولكنه مع ذلك يضع للضحك حدوداً لا ينبغي لأحد أن يتجاوزها، يقول الجاحظ: وللضحك موضع وله مقدار، وللمزح موضع وله مقدار، متى جاوزهما أحد وقصر عنهما أحد، صار الفاضل خطلاً والتقصير نقصاً، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر، ومتى أريد بالمزح النفع، وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك، صار المزح جداً، والضحك وقاراً.

وهكذا نرى أن فلسفة الجاحظ في ضحكه وإضحاكه فلسفة عميقة واعية تعتمد على أسس فكرية ونفسية سبق بها كثيراً من المفكرين، فلقد قرر الجاحظ أن الإنسان لا يضحك منفرداً بمقدار ما يضحك إذا تجاوب معه آخرون وشاركوه في الإحساس بالشيء المضحك، ويقول علماء النفس إن الضحك سلوك اجتماعي يقوم به الإنسان ويؤدي في حياة الأفراد والجماعات وظيفة نفسية هامة من وظائف الاتزان العاطفي، وهو السبيل إلى تحقيق ضرب من التكامل النفسي والاجتماعي ومن ثم فالجاحظ يقرر أن الضحك يحتاج إلى مشاركة من الآخرين، ويفهم ذلك من خلال ما قاله في حكاية قصته مع محفوظ النقاش البخيل

الذي يدعي الكرم خشية تهكم الجاحظ وسخريته منه، قال الجاحظ: صحبنى محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلاً فلما صرت قرب منزله سألني أن أبيت عنده، وقال أين تذهب في هذا المطر والبرد؟، ومنزلي منزلك، وأنت في ظلمة وليس معك نار، وعندي لبأ (اللبأ هو اللبن الذي ينزل بعد الولادة عند الحيوانات مباشرة) لم ير الناس مثله وتمر ناهيك به جودة، لا تصلح إلا له فملت معه فأبطأ ساعة ثم جاءني بجام لبأ وطبق تمر، فلما مددت يدي قال يا أبا عثمان إنه لبأ وغلظة، وهو الليل وركوده، ثم ليلة مطر ورطوبة، وأنت رجل قد طعنت في السن، ولم تزل تشكو المرض، ومازال المرض يسرع إليك، وأنت في الأصل لست بصاحب عشاء، فإن أكلت اللبأ ولم تبالغ ، كنت لا آكلاً ولا تاركاً، وحرشت طباعك، ثم قطعت الأكل أشهى ما كان إليك، وإن بالغت بتنا في ليلة سوء، من الاهتمام بأمرك، ولم نعدّ لك نبيذاً ولا عسلاً، وإنما قلت هذا الكلام لئلا تقول غداً كان وكان والله قد وقعت بين نابي أسد، لأني لو لم أجئك به، وقد ذكرته لك، قلت: بخل به وبدا له فيه، وان جئت به ولم أحذرك منه، ولم أذكرك كل ما عليك فيه، قلت لم يشفق علي ولم ينصح، فقد برئت إليك من الأمرين جميعاً، فان شئت فأكلة وموتة، وان شئت فبعض الاحتمال ونوم على سلامة يقول الجاحظ : فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة ولقد أكلته فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور، فيما أظن، ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به لقضى الضحك علي،

ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على قدر مشاركة الأصحاب.

فهذه العبارة الأخيرة التي ختم بها الجاحظ حديثه عن محفوظ النقاش تدل على أن الجاحظ يقرر أن الضحك مشاركة جماعية، فالإنسان لا يضحك إلا في وجود جماعة، ومن ثم فالجاحظ يسبق برجسون في هذا الرأي الذي يرى أن الإنسان ما كان يمكن أن يقدر الكوميديا أو يتذوق النكتة لو أنه كان وحدة، وذلك لأن الضحك بطبيعته في حاجة إلى أن يردد أصداءه وينشر إشعاعاته، فهو في صميمه ظاهرة اجتماعية .

علاقته بالفلسفة:

ترجع علاقة الضحك بالفلسفة إلى التفسيرات التى ربط فيها الفلاسفة القدامى والمحدثون بين الضحك والسلوك قبل الضحك وبعده وتعريفاتهم له ولنرى ما قال الفلاسفة عنه :

أرسطو: نحن نضحك على من هم أقل منا وعلى القبحاء(جمع قبيح) من الأشخاص، والفرح يأتينا من الشعور بأننا طبقة أعلى منهم. سقراط : السخرية تنبع من تجاهل الذات .

هيجل: ينشأ الضحك نتيجة لوجود تناقض بين المفهوم والمعنى الحقيقي الدفين الذي يقدمه هذا المفهوم وهو يشير إلى المفهوم بالمظهر الظاهر لنا وبالضحك يُنكر وجوده كلية.

جون موريال: الضحك الإنساني له أصوله البيولوجية كنوع من أنواع التعبير عند المرور بخطر ما.

بيتر مارتينسون : الضحك هو الاستجابة للإدراك الذي يقر بأن الكينونة الاجتماعية ليست شيئاً حقيقياً.

ولقد طور الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون ١٨٥٩- ١٩٤١ نظرية حول الفكاهة والضحك قال فيها أن هناك شروطاً ثلاثة لحدوث الضحك في رأي برجسون ، وهي :

١- أنه لا مضحك إلا فيما هو إنساني فقدأفتتح برجسون كتابه عن الضحك بالقول أنه لا مضحك إلا فيما هو إنساني فالمنظر الطبيعي قد يكون جميلاً لطيفاً رائعاً ، وقد يكون تافهاً قبيحاً ولكنه لا يكون مضحكا أبداً ، وإذا ضحكنا من حيوان فلأننا وجدنا عنده وضعاً أو تعبيراً إنسانياً إذن ، الشرط الأول لحدوث الضحك أن يحدث من إنسان ، أو على شئ أو كائن آخر يأخذ في مظهره أو مسلكه طبائع الإنسان وصفاته ، فالحيوانات أو الموضوعات الجامدة كالقبعات مثلاً كما قال تصبح مضحكة فقط بالقدر الذي تذكرنا عنده بشئ انساني.

٢- الشرط الثاني لحدوث الضحك عند برجسون هو غياب الانفعال أو الشعور العاطفي ؛ فالخصم الأعظم للضحك هو الانفعال ، وكي يحدث

المضحك ما يحدثه من تأثير لابد أن يتوقف القلب برهة عن الشعور ، أن المضحك يخاطب العقل المحض .

٣- الوظيفة الاجتماعية للضحك ويسير استدلال برجسون المنطقي فيما يتعلق بالأساس الاجتماعي للضحك على النحو التالي : تتطلب الحياة والمجتمع الآن من الفرد التوتر والمرونة ، القابلية للتكيف والتنبه أو اليقظة الذهنية ، وتضع الحياة معياراً أقل من المعيار الذي يحدده المجتمع ، وبدرجة متوسطة أو معتدلة من القابلية للتكيف تمكن المرء من أن يعيش حياته أما كيف يعيش بشكل جيد وهو الهدف الذي يتطلبه المجتمع فيحتاج إلى قدر كبير جداً من المرونة ، ويتشكك المجتمع في كل الميول الخاصة التي تسير في اتجاه التصلب والجمود ، ومن أجله ابتكرت المجتمعات تلك العلامة الاجتماعية الخاصة المسماة الضحك ، كي تخدمه بوصفها أداته التصحيحية الخاصة لكل أنواع الانحرافات المضادة للمجتمع.

ينشأ الضحك إذن ، عن أسباب اجتماعية ، وهو لا يحدث إلا في ظل التفاعل الاجتماعي ، ودوره الجوهري تصحيح العيوب الاجتماعية المرتبطة بالآلية والجمود والتصلب ونقصان المرونة ، والانعزال والغرور-الخ فالضحك لدى برجسون هو دائماً ضحك جماعة وهو كسر مفاجئ للعادة ، من دون إراده أو قصد .

وقد يكون المضحك في الشخص نفسه ، وطريقة كلامه ، أو طريقة

حركته أو تفكيره ، أو تفاعله مع الحياة ، أو مع الآخرين وهنا يقول برجسون تصوروا ، إذن ، ذهنا يفكر فيما فعل ، لا فيما يفعل ، كاللحن الذي يتأخر عن موكبه.

وقد واجهت نظريته عدداً من الانتقادات منها :

أولا: فيما يتعلق بكون الضحك ظاهرة إنسانية ، قال بعض الباحثين أن بعض الحيوانات ، كالقردة والكلاب ، تصدر أصواتا تشبه الضحك ، خاصة إذا تمت دغدغة جسدها ، لكن مازلت هذه الحجة ضعيفة ، حيث أن ظاهرة الفكاهة ظاهرة شديدة التعقيد بحيث لا نستطيع أن نختزلها في بضع حركات تظهر في منطقة الفم أو البطن.

ثانيا : الضحك لدى برجسون ظاهرة عقلية تتطلب أن يتوقف القلب برهة عن التفكير ، فالمضحك يخاطب العقل المحض ، أن الضحك أجتماعى تفاعلي أيضاً ، فكيف يحدث من دون انفعال ، كيف يحدث من دون بهجة أو سرور ؟ إن الرجل الذي يسقط فجأة ، والذي أشار إليه برجسون ، لن يحدث ضحكاً لدي جميع من شاهدوا هذه الحادثة ، فما هو مطلوب لتحفيز الضحك هنا فقط بعض الشروط الخاصة التي نادراً ما تكون شروطاً عامة تتعلق بكافة مظاهر سقوط البشر ، وقد لا تكون هذه المشاهد ذات علاقة بالعقل أو التفكير ، فأحياناً ما يتغلب شعورنا بالشفقة والتراحم مع من يسقطون ، خاصة كبار السن والمرضى ، فلا نضحك

منهم ، إذ كيف نضحك فى موقف يستحق البكاء؟ أن من يضحكون من هذه المواقف قد يكونون أفراد أقل نضجاً من الناحية العقلية أو الانفعالية ـ كما قال باركن ـ فالإنسان كلما أرتفع مستوى عقله وذكائه ، قل احتمال أن يضحك من إنسان يسقط ، وزاد احتمال التعاطف معه.

ثالثاً : الضحك ظاهرة اجتماعية تصحيحية يعاقب من خلالها المجتمع من ينعزلون عن مركزه ، فهل ينبغي عقاب كل منعزل عن مركز المجتمع بالضحك؟ ألا يمكن أن يكون هذا الانعزال سلبياً في حالة المرض أو إيجابياً في حالة الإبداع ؟ فهل ينبغي عقاب المبدعين ، أيضاً؟ وماذا إذا كان المجتمع نفسه هو المتسم بالنمطية والآلية ؟ والفرد هو المتسم بالمرونة والتجدد ألا يستحق مثل هذا المجمتع أن نسخر منه ونضحك ؟ ألا يستطيع مبدع كبير مجدد أن يخرج مجتمعاً ما من آليته وذهوله وغيبوبته والعكس؟

رابعاً: أن تحليلات برجسون للأعمال المسرحية تقع في معظمها ضمن السخرية فقط ، دون أنواع الفكاهة الأخرى والسخرية هي فعلاً نوع من فكاهة العقاب التصحيحي الذي يتفق مع تحليلات برجسون ومبادئه ، من حيث كونه ضحكاً يتم بشكل جماعي ، ومن خلال الجماعة للخارجين عليها ، وهناك أنواعاً أخرى من الضحك لم يهتم بها تقوم على أساس المشاركة ولا تعتمد على السخرية بل على أساس البهجة والمرح المشترك من دون سخرية أو أنتقاص للآخرين ، أو تصحيح خاص

لسلوكهم .

خامساً: يرتبط بهذه النقطة كذلك إشارة برجسون إلى أن الضحك المتردد الأصداء يتعلق بجماعات منغلقة على نفسها تحاول إعادة المارقين عنها إليها ، وأن الآخرين الخارجين لا يمكنهم المشاركة مع أعضاء هذه الجماعة في هذا الضحك وكما أشار برجسون ، فلعله تصادف أن كنت في قطار أو مطعم ، فسمعت الناس يتبادلون حكايات لابد أنها كانت مضحكة بالنسبة إليهم مادامت أضحكتهم وكانت تضحكك لو كنت منهم ولكنك لست منهم فما تشعر بحاجة إلى الضحك.

يقول باركن إن هذا الخلط لدى برجسون ربما كان راجعاً إلى أن ضحك السخرية ، الذي أهتم به برجسون ، ليس خاصية العدوى الخاصة بالمشاركة ، التي تحدث في المسرح فعلاً بين أناس لا يعرف بعضهم بعضاً ، ولكنهم يصبحون فجأة جماعة تشترك في الضحك ، لأن الفعل الدرامي المضحك يوحدهم ، لقد أجريت دراسات حديثة أشارت إلى أن الضحك له خاصية العدوى ، فالإنسان قد يضحك لمجرد سماعه تسجيلات صوتيه لأناس يضحكون ، ثم أنه قد يسأل بعد أن يضحك عن السبب الذي جعل أصحاب هذه التسجيلات يضحكون.

سادسا : يرتبط بما سبق أيضاً ما قيل من أن التشويه الجسدي والعقلي لا يكون دائماً موضوعاً للضحك الساخر العقابي التصحيحي الذي أهتم به برجسون ، بل أنه قد يكون موضوعاً للأحتفاء والاحتفال ، لا القمع

والعقاب ، هنا تتعامل الجماعة مع هذه التشوهات والانحرافات بمحبة وبهجة ، وليس من خلال الإهانة والإذلال ، هذا ما أكده باختين ، لقد تم الاحتفاء كثيراً في ثقافات عديدة بمظاهر غرابة الجسد والسلوك ، وتم تعظيم قدرها في مجتمعات عديدة وظواهر مثل مضحك القرية ، ومضحك الملك ، والبهاليل المبروكين في بعض المناطق العربية أو غير العربية ، هي من الأمور المؤكدة ، لأن الجسد المشوه قد يكون موضوعاً للاحتفاء والفرح لا السخرية والعقاب.

سابعا : إن نقطة الضعف الأساسية في نظرية برجسون ، كما يقول كثير من الباحثين ، هي أنه قام بالتحليل لنمط واحد من الفكاهة ، وهو السخرية ، ولنمط واحد من الضحك ، وهو الضحك التصحيحي ، ثم قام بتعميم تحليلاته على كل أنواع الفكاهة والضحك ، فهل ضحك الأم مع طفلها الحديث الولادة نوع من التصحيح لسلوكه ؟ هل ضحك ألعاب المفاجآت لدى الأطفال وفي مدن الملاهي تصحيح لسلوكيات غير اجتماعية ؟ هل هو ضحك ساخر ؟ هل هو ضحك ذكاء وعقل فقط ، ومن دون انفعال كما قال برجسون إن القوة الحيوية التي أعلى برجسون كثيراً من شأنها تصبح هنا قوة آلية ميكانيكية ، خاصة عندما يتم اختزالها في وظيفة واحدة هي وظيفة التصحيح العقاب ، وهذا يتناقض مع فكرة الإبداع والتجديد ، ومن ثم يصبح الأمر أشبه بالدائرة المغلقة التي تؤكد الانصياع والانغلاق والقيود والعودة الأبدية إلى الوضع الأول

، وهو التوازن وهذه الطاقة المجددة الخاصة بالضحك تصبح ذات طبيعة محافظة نمطية آلية ، بدلاً من أن تكون طاقة مجددة وإبداعية ،وذلك يتعارض مع قوله إن الحياة تقدم نفسها لنا كتطور في الزمان وتعقيد في المكان ففيما يتعلق بالزمان ، فهو تطور مستمر للكائن الحي الذي ينمو دوماً فيصبح أكبر ، إنه لا يعود أبداً إلى الوراء ، ولا يكرر أبداً أي شئ ، أما فيما يتعلق بالمكان ، فانه يعرض لنا مجموعة من العناصر الموجودة معاً أو المشاركة في الحضور معاً ، عناصر وثيقة الاعتماد المتبادل فيما بينها ، وموجودة بشكل فذ من أجل بعضها البعض.

إن فرويد يعتبر الضحك والفكاهة من أرقى الإنجازات النفسية للإنسان وتصدر عن آلية دفاعية في مواجهة ما يهدد الذات وتقوم هذه الآلية الدفاعية بتحويل حالة الضيق إلى حالة المتعة فللنكتة فى برأيه قناع عدواني أو جنسي لكي يخفي الشخص حالات الإحباط الخاصة به وهو يؤكد علي أن للضحك والفكاهة وظيفة نفسية، وهو من سبل الصحة النفسية، بما يحقق التوازن العاطفي حيث يعود بنا إلي الطفولة المنطلقة السعيدة، وتساعدنا علي الهروب من عناء الواقع والاستمتاع بلذة الحياة كما أن الطرفة أو النكتة علاج نفسي مثلها مثل الحلم الذي يراه النائم قصيرة، مكثفة، مختزلة غير منطقية وتبقي الفكاهة فن تحقيق المستحيل

الذي لا تستطيع أن تحققه في الواقع ، فتسخر منه أو تحققه بصورة فكاهية رمزية .

يقول مارسيل بانيول في ختام رسالته عن الضحك أن الضحك يمكن أن يكون مقياساً للحكم على الشخص وتقييم أبعاده الشخصية وقيمه الأخلاقية باعتباره النافذة التي يقذف الإنسان من خلالها بكل ما في أعماقه ،من ثقافة ومعرفة من كبت وتحضر من قيم ومباديء ، من رؤية للمجتمع وموقف من الحياة .

وإذا كانت القوانين المفسرة للشخصية تتمثل فيما يسميه لإيزنك بأبعاد الشخصية وكان البعد الأول لأي شخصية من الشخصيات يتكون من الانطواء والانبساط ويتكون البعد الثاني من الميل إلى الأعصاب والبعد الثالث من الميل إلى الذهان أو المرض العقلي ، أما البعد الرابع والأخير فيتمثل في الذكاء وسرعة البديهة ، وكانت هذه الأبعاد الأربعة كما يقول ايزنك كافية للكشف عن معظم النواحي المتباينة في الشخصية فإننا نستطيع أن نعتمد على ما يقوله ايزنك في أن نعرف إلى أي مدى تؤثر الحالة الوجدانية أو الاتجاه الوجداني لدى الإنسان على نوع استجابته للظروف الخارجية ،ذلك لأن الضحك إنما يتوقف من ناحية على الحالة المزاجية التي يوجد فيها الإنسان لحظة استجابته للضحك ، كما يتوقف من ناحية أخرى على سمات الشخصية التي تحدد مدى تذوقه

للفكاهة وإحساسه بالنكتة وإدراكه للموقف الكوميدي .

فالضاحك المسرور قد يكون سروره زهواً بنفسه واحتقاراً لغيره ، وقد يكون هذا السرور فرحاً بغيره دون أن ينطوي على عنصر الزهو بالنفس والاحتقار للغير والضاحك الساخر قد يكون ضحكه من نقائص الآخرين، لأنه يستريح إلى وجود هذه النقائص في غيره لا في نفسه ، وقد يكون ضحكه من هذه النقائص تنفيسا عن شعور برفضها سواء في نفسه أو في الآخرين .

كذلك قد تكون استجابة الإنسان للضحك منطوية على مزاج اللهو واللعب والدعابة والمرح وقد تنطوي استجابته على النظرة الواقعية للأمور والاستجابة الجادة للمثيرات كافة .

فإذا انتقلنا من الفرد إلى الجماعة وعدنا إلى تقسيم ايزنك لأبعاد الشخصية وجدناه يفرق بين السمة والنمط فهو ينظر إلى نظام الشخصية نظرة بنائية طبقية :

الطبقة الأولى أوالدنيا للسلوك تتكون من الاستجابات العادية التي تتكرر كثيراً في مقابل الاستجابات النوعية ، وبعض هذه الاستجابات العادية تتجمع ، لتكون مجموعة مستقلة داخل الشخصية ، ويطلق على هذه المجموعة اسم السمة وتمثل السمة شكلاً من أشكال تجمع الميول والرغبات ، والسمات بدورها تتجمع في شكل أبنية أعم وهذه الأبنية تكون الأنماط : فالنمط إذن يتكون من مجموعة منظمة من السمات ، كما

أن السمة تتكون من مجموعة منظمة من الاستجابات العادية غير النوعية أو بعبارة أخرى فإن النمط يمثل العامل العام ، وتمثل السمة العامل الطائفي، أما الاستجابة العادية فإنما تمثل العامل الخاص وهذا معناه أن ظاهرة الضحك لدى الجماعة إنما تتوقف على مجموعة من العوامل الاجتماعية : بمعنى أن تذوق الفكاهة والتعبير عنها والمشاركة فيها يتوقف على مجموعة السمات الشخصية والأنماط العامة التي تغلب على أفراد الجماعة حتى في داخل المجتمع .

علم الاجتماع

الضحك فى التراث العربى والإسلامى

يدعو الهدي النبوي إلى الابتسام والمزاح الصادق والتودد للناس، وفي الحديث النبوي تبسمك في وجه أخيك صدقة وقال علي بن أبي طالب روحوا القلوب فإنها تمل كما تمل الأبدان، وقال أيضاً من كانت فيه دعابة فقد برئ من الكبر ومن أهم مصادر الفكاهة والسخرية في التراث العربي ابن الرومي شاعر الهجاء والتهكم، والجاحظ مؤلف كتاب البخلاء المليء بالسخرية والتهكم والهزل، كما يتحدث الجاحظ عن فلسفة الضحك وأهميته في الارتقاء بالخلق وتطييب النفوس ومن هؤلاء أيضاً أبو الفرج ابن الجوزي مؤلف كتاب أخبار الحمقى والمغفلين وكتاب الأذكياء، والتوحيدي الفيلسوف مؤلف المقابسات، والإمتاع والمؤانسة،

والبصائر والذخائر، والهوامل والشوامل، وله نظريات في تفسير الضحك على مستوى عال من العمق والذكاء، فهو يرى أنه قوة ناشئة عن تفاعل قوتي العقل والغريزة في الإنسان، والضحك حالة من أحوال النفس تنشأ عندما يرد إليها استطراف أي شيء طارئ يجعلها تتعجب، ويقول في البصائر إياك أن تعاف سماع هذه الأشياء المضروبة بالهزل الجارية على السخف، فإنك لو أضربت عنها جملة لنقص فهمك وتبلد طبعك.

واشتهر في التراث العربي مجموعة من الظرفاء والمضحكين وفي كتابه الفكاهة عند العرب يورد أنيس فريحة أخبار كثير منهم ممن احترف الفكاهة مثل جحا وأبو علقمة وأبو دلامة وأبو النجم وأبو الشمقمق وأشعب وبهلول وتحدث الجاحظ عن الشاعر أبو العبر الذي كان شاعراً جاداً وأديباً وحافظاً للأخبار وصنف كتباً كثيرة منها جامع الحماقات وحاوي الرقاعات ويقول عنه إنه كسب من الهزل أضعاف ما كسب من الجد.

وبعض الشخصيات تميل بطبيعتها إلى الانبساط وتحب الفكاهة، ولكن في حالات من الصفات المكتسبة كالإحباط واليأس قد تبتعد الشخصية عن الفكاهة، والعكس أيضاً فقد يؤدي التفاؤل المكتسب لشخصية انطوائية مثلاً إلى الميل للفكاهة.

جماليات الضحك اللغوية والثقافية

الضحك ظاهرة جمالية، وهو كاللغة ـ وفق عالم النفس الشهير جان بياجيه ـ يؤدي للأفراد وظائف مشتركة تقرب فيما بينهم، وله معان ودلالات ثقافية مشتركة وكما أن هناك اختلافات في اللغة من وطن لآخر، كذلك هناك اختلافات في الفكاهة والنكات والضحك من وطن لآخر، بل داخل الأسرة الواحدة ، وتعددت الفكاهة والضحك واحد.

ويحقق الضحك والفكاهة نوعاً من التواصل اللغوي الاجتماعي فالمرء لا يضحك وحيدًا، بل لابد من مرسل، ومستقبل، وطريقة إرسال، ورسالة يتم التلاقي حول الإحساس بها وشيوع الثقافة الجادة، وفي لبها لغة ثرية متداولة، تساعد على الارتفاع بمستوى الفكاهة الراقية التي لا تخلو من عنصري الذكاء والمعرفة.

إن البشر ـ فرادي وجماعات ـ عندما يضحكون، فإنهم يكونون أقدر على البذل والعطاء والتسامح، والتواصل الاجتماعي والاقتصادي، يقول المثل الصيني من لا يستطع الابتسام فليس له أن يفتح متجراً والضحك هو الربح الذي يتقاضاه هؤلاء وأولئك فوراً، فهو ينشّط خلايا المخ، ويجعل الإنسان قادراً على أداء عمله، ويهيئ الجسم للاسترخاء العضلي، ويقوّي جهاز المناعة، فيقاوم المرء العلل الجسمية والنفسية

مثل القلق والتوتر والاكتئاب إذا كنت مازلت قادراً على الابتسام، فإن الأمور سوف تتحسن حتماً، وهو جواز المرور لقلوب الآخرين.

وظيفة الفكاهة والضحك في حياتنا:

إذا تلاقى صديقان فبعدالسلام قلما لايبدأ أحدهما بهل سمعت آخر نكته؟ ثم يبدأ في إلقاء ما عنده، ويستغرق الجميع في الضحك، ويوصف المصريون بأنهم شعب ضاحك في كل الظروف، والنكتة هي إحدى وسائل التعبير عن الانفعالات وإطلاقها، ومن خلال مضمون النكتة وموضعها يمكن أن نستنتج طبيعة الشحنة الانفعالية التي تحملها، فالغضب مثلاً يمكن التعبير عنه بنكتة عدوانية فيها التهجم والسخرية وحتى انفعال الخوف يمكن أن يظهر في صورة نكتة بها مسحة من الأسى، وكذلك التقزز عن طريق النكات البذيئة، والرغبات الجنسية في صورة الفكاهة المكشوفة والقهقهة العالية، لذا فالفكاهة في حياتنا لها وظيفة نفسية واجتماعية علي مستوى الفرد والجماعة ولقد أثبتت دراسة علمية أن الذين يتمتعون بالحس الفكاهي يأتي ترتيبهم متأخراً جداً في سلم الأشخاص المعرضين للإصابة بالأمراض النفسية، ومرجع ذلك أن الذين يضحكون يجدون في الفكاهة الحل التلقائي لما يصيبهم من توتر وكثيراً ما تبين في العيادة النفسية الأثر الذي يشبه السحر الذي تتركه الابتسامة الصادقة في وجه إنسان يتألم، أو ضحكة مشتركة تشيع

الألفة وتقوي التعارف بين الطبيب ومريضة ولا أدري صحيحاً ما يظنه البعض من تعارض الضحك مع هالة الاحترام التي تحيط بالبعض منا إذا احتفظ دوماً بمظهر الجد والصرامة، ومن منظور إسلامي فهناك الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحض علي أن يلقى المؤمن أخاه بوجه طلق، وما يصف تبسم المرء في وجه أخيه بأنه صدقة، وورد أيضا أن رسول الله ص كان أكثر الناس تبسماً ٠

ولكن هناك تساؤل هل يمكن أن نضحك لو أننا كنا نعيش فرادي؟، ولماذا يضحك المرء إذا دغدغه آخر، بينما لا يضحك إذا قام هو بتلك العملية بنفسه لنفسه؟ ولمن نضحك؟،وهل هناك علاقة بين إلقاء نكتة من شخص والضحك عليها من قبل آخرين؟ أسئلة تستدعي إجابات تدل في مجملها علي سوسيولوجية الضحك فمن اللافت أن الضحك يتضاعف بالجماعة ويكثر، فالإنسان لا يستطيع أن يضحك إلا في وجود غيره من الناس، فهو يمثل ظاهرة اجتماعية لذا يميز برجسون بين فن التراجيديا لكونها تحمل طابعاً شخصياً، وبين الكوميديا ذات الطابع الاجتماعي العام فمن شواهد ذلك أن من يلقون النكات على المستمعين يضحكون أكثر منهم، ربما لكي يجعلوهم يضحكون بالعدوى والمرء قد يضحك على النكتة بمجرد إلقائها لأنه مهيأ، ومُنبه اجتماعياً لذلك، حني قبل أن يستوعبها كما أننا قد نضحك على النكات السخيفة والنكات

القديمة التي سمعناها كثيرًا من قبل، إذ يبدو أن الضحك يحتاج دائماً إلى أن يكون له صدى وأن يجد له تجاوباً مع الآخرين.

يقول هنري برجسون إن المرء لا يستسيغ أصلاً الضحك حين يستبد به الشعور بالوحدة فضحكنا دائماً هو ضحك جماعة وليس ضحك أفراد لذا فهو يزيل الحدود، ويقوي الروابط ويجعل الإنسان ينظر للحياة بمودة،وللجنس البشري بمحبة كما يشير إيزنك إلي أن الضحك نوع سام من أنواع التكيف السامي، وإذا كان ذلك كذلك فلا بد أن يحقق التسامح.

ويحتاج الوجدان الشعبي الجماعي الذي يتوارثه الأحفاد إلى ما يذكيه، ويحافظ عليه متقدًا من جيل إلى جيل، والفكاهة المتوارثة من أكثر الأشياء التي حافظت على تلك الروح الجماعية للمجتمعات فدلالة الضحك الاجتماعية، وربطها بالمناخ الاجتماعي، أو الطقس الحضاري، تقوّي الروابط الاجتماعية، وتذيب الفوارق بين الطبقات، وتزيل الحقد والشحناء، وتحد من ثقافة العنف والعدوان.

غرائب علمية عن الضحك

حين نسمع شخصاً يضحك يتحرك في دماغنا تفاعل ينشط معه مركز الضحك وقد نبدأ بالضحك من دون أن نعرف سبباً ولا يعرف الضحك حدوداً في اللغة، فهو مفهوم في العالم كله وإذا ضحك ياباني فهم العربي

والهندي والارجنتيني أنه يضحك وهو ما يعني أن الضحك لغة عالمية مطلقة.

وأثبتت دراسة احصائية تناولت ١٢٠٠ شخص أن معظم ضحك البشر في المحادثة لا ينتج من نكات أو طرائف بل من كلام قد تستغرب فيما بعد لماذا ضحكنا عند سماعه.

وتبين أن المتكلم يضحك أكثر من المتلقي بنسبة ٥٠% من الحالات وإذا ابعدت عن الإنسان كل وسائل الاتصال (التلفزيون والهاتف والسينما والصحف) وكان وحده فنادراً جداً ما يضحك، حتى لو كان غاية في السعادة والمرح وتضحك النساء أكثر من الرجال لاسيما حين يحادثن رجالاً ويضحك الرجال معظم الوقت وهم يحادثون رجالاً، ويا للغرابة، قليلاً ما يضحكون وهم يحادثون النساء.

محادثة الرجل لامرأة، هي الحالة الاجتماعية الوحيدة التي يزيد فيها ضحك المتلقي المرأة على ضحك المتكلم الرجل.

في المدارس المختلطة في الغرب يكون الشخص المضحك في الصف، في الغالب الأعم، صبياً، ونادراً ما يكون فتاة وقد يكون سبب هذا الفرق كون الرجل في معظم المجتمعات، في موضع المسيطر،ولذا تضحك المرأة أكثر من باب الاسترضاء فيما يحجم الرجل عن الضحك إثباتاً لسلطته.